في الهواء الطلق ...

تجارب منتجة في التربية الحديثة

بقلم الاستاذ محمود فهمي
خريج جامعة لندن

ربما أفاد المعلم » من هذا البحث الذي لا يعتبر اليوم جديداً في البيئة العلمية الأوربية والذي لم يتهيأ له بكل أسف أن يجد مستقره في مصر ، وإني أعتقد أن فائدة «المعلم» المصري منه ستكون فائدة محدودة إلى حد بعيد . أعني أنها لن تعدو أن تكون مظهرا من المظاهر الدالة على ثقافته ومعرفته ، معرفة إحاطة وإلمام بما هو إليه من ضروب الثقافات التي تشغل أذهان أنداده في أوربا ، وبخاصة في انجلترا وألمانيا ، وحسب « المعلم » المصري هذه الفائدة المحدودة . إلى أن يتاح لوزارة المعارف أن تخطو بالتعليم خطوة أخرى تقربه بها إلى هذا اللون الطريف الجديد من ألوان التربية الحديثة ، وبومئذ يستطيع « المعلم » المصري أن يطلق هذا البحث من قيود النظريات الخيالية ، إلى مواطن التجارب العملية . فيعلم إلى أي مدى تصل به نتائج التجارب . وإلى أي غاية تهدي به تلك النظريات حين يطبقها على الحقيقة فلا تزداد إلا رسوخا في نفسه ووجدانه ، ولا تزيده إلا ثقة بأن هذه النظرية الأوربية في التعليم الحديث هي أحق النظريات باستعمالها في مصر ..

تلقت أحد البارزين من رجال التربية في بلاد الانجليز حوالبه فرأى أن مكث الطفل طوال يومه المدرسي في حجرة الدراسة لن يهيء له أن يسبح إلى بعيد في هذه الأجواء التي تفتح ذهنه ، وتبعث في مداركه روح النشاط والدأب :

ولقد هداه تفكيره إلى أن يخرج بتلاميذه إلى الهواء الطلق حتى يعلم مدى ما يثيره في نفوسهم منظر الطبيعة حين لا يستره عنهم حجاب أو نقاب ، ثم هداه تفكيره إلى أن يجعل البرامج بحيث توافق هذا الفضاء الرحيب . ثم هداه تفكيره إلى أن يأخذ التلاميذ أخذا هينا لينا ، فلا يسرف معهم في العقوبة ، ولا يسرف معهم في الترفيه . ولا يتعمد إثارتهم علميا أو عمليا إثارة من شأنها أن توفر على ألبابهم شيئا من الطرف أو شيئا من التفكير . ثم أخذ يراقبهم عن كثب في ظل هذه الروح التي راح يدربهم بها راجيا أن يصل من وراء ذلك إلى نتائج . لعلها تبعثه على أن يذيع فكرة التعليم في الهواء الطلق وهو هادىء مطمئن يستطيع أن يدفع عنها حملات المتألبين عليها دون أن يشعر في طريقه بفكرة غير ناضجة أو رأي غير معقول .

ولقد كانت النتائج التي انتهى إليها هذا العالم الذائع الصيت من النجاح بحيث أوحت إليه أن يدعو إلى فكرته ويظهر حقائقها وميزاتها . جرىء الصوت ، حاسم الحجة كثير الأسانيد

فهو يرى أن التعليم في الهواء الطلق يعود التلميذ صحة النظر إلى الأشياء . وهو يرى أن هذا التعليم في الهواء الطلق يدفع التلميذ إلى التماس كل ما في مواهبه دون أن يكتم منها شيئا ، لأن الطبيعة التي تطوقه من جوانبه تشعره بالحرية الواسعة النطاق ، وتجعل منه إنسانا ينظر إلى كل شيء نظرة مستقلة لا أثر فيها لرهبة أو خوف .

وهو يرى أن التعليم في الهواء الطلق يكسب الطفل جنوحاً دائما إلى الصحة . وهو أول ما يعنى المعلم بأحاطة تلميذه به لأنه يعيش في جو لا فساد فيه ، وهو يرى أن التعليم في الهواء الطلق يكسب التلميذ العمل على أن يركز في نفسه فكرة واحدة ، وهي أنه يحيا ليكون رجلا نافعا . لا ليكون رجلا خاملا ، فهذا الجو الذي حوالية . إنما هو جو يثير في النفس الدأب الكادح ، والجهاد المستمر .

ولقد حيذ هذه النظرية الجديدة أنصارها في كل فج . كما راحت تلقى خصومها ، فؤلاء الأنصار قد اقتنعوا بصحة الآراء التي رآها صاحب فكرة التعليم في الهواء الطلق . أما خصومها فقد سلقوها بألسنة حداد لأنهم يرون أن الهواء الطلق يدفع الطفل إلى اللهو واللعب واستغلال أوقاته جرياً فيما لا يرضى عنه رجل من رجال التربية .

ولكن هذه النظرية قد اكتسحت خصومها اكتساحاً ، فرأينا أن مدارس « الهواء الطلق » تنتشر في انجلترا ثم رأينا أن « المانيا » قد اهتدت إلى ما فيها من سداد . وما يلابسها من حياة تعود على الأطفال بالنفع العلمي والعملي معا . فتناولتها . كما هي أول الأمر . ثم راحت تزيد عليها تجويدا وتحسينا وتمحن فيها إصلاحاً ، حتى أخرجتها على نسق رائع . وحتى استطاعت أن تجعل مدارسها من هذا النوع مدارس مثالية لها أثرها اليوم في إخراج الطفل الألماني إخراجا نافعا قويا قويما صحيحاً .

ومدرسة الهواء الطلق . لا تكلف الدولة أشباه هذه النفقات الطائلة التي تتكلفها في إنشاء المدارس ، أما برنامجها . فهو من السهولة بحيث لا يتناول التلميذ إلا اليسير الهين من العلوم . ولكنها تعوده النظر في هذه العلوم القليلة نظرا عميقاً . حتى تتأصل في نفسه روح البحث والفهم ، وفكرتهم الرامية بهم إلى ذلك . هي أن القليل المفهوم خير من الكثير المعدوم .

والحديث عن مدارس الهواء الطلق طويل إلى حد يجعلنا نلتمسه مع القراء في عدد آت إن شاء الله .

محمود قسرعي